

سياسة المأمون الخارجية:

كانت سياسة المأمون نحو دولة الفرنجة أو الامبراطورية الرومانية المقدسة ، استمراراً لسياسة والده الرشيد التي تقوم على مصادقة هذه الدولة الأوروبية الغربية . وعلى الرغم من أن وفاة شلمان حدثت في العام التالي من خلافة المأمون سنة ٨١٤ م ، الا أن ذلك لم يحل دون استمرار سياسة التفاهم مع ولده لويس التقى ، اذ تشير المصادر الاوربية الى هذا الامبراطور أرسل سفارة الى البلاط العباسي أيام المأمون سنة ٢١٦ هـ (٨٣١ م) .

أما عن علاقة المأمون بجيرانه الروم أو البيزنطيين فكانت سياسة عدائية على غرار سياسة آبائه من قبل .

ويستفاد من كلام المؤرخين أن المأمون استغل فرصة الفتنة الداخلية التي تزعمها توماس الضقلي ضد الامبراطور البيزنطي ميخائيل الثاني سنة ٨٢١ م ، وأخذ يمدد بالمال والسلاح كي يعينه على فتح القسطنطينية والاستيلاء على الحكم . كما أوعز الى بطريق القسطنطينية أن يتوج هذا الثائر امبراطوراً ليصبح حركته بصيغة شرعية ولكن الدولة البيزنطية كشفت أخبار هذه الاتصالات وانتهى الأمر بهزيمة توماس الضقلي وقتله على أبواب القسطنطينية سنة ٨٢٣ م .

ولم يتردد المأمون في السنوات الاخيرة من حياته من قيادة جيوشه بنفسه والتوغل في الأراضي البيزنطية بآسيا الصغرى . وكان في بعض الاحيان يسند قيادة تلك

الحملات الى ابنه العباس ، وقد كانت وفاة المأمون في آخر غزوة من غزواته في الاراضي البيزنطية شمالي مدينة طرسوس نتيجة لاصابته بالحمى هناك .

أما عن علاقة المأمون بدولة الأغالبة في افريقية أو المغرب فنجد أنها كانت كذلك استمراراً لسياسة والده التي تقوم على الاعتراف بحكم هذه الاسرة على على اساس الاستقلال الذاتي مع التبعية للخلافة العباسية . وكان يحكم هذه الدولة في عهد المأمون الأمير زيادة الله الاول بن ابراهيم بن الأغلب (٢٠١ - ٢٢٣ هـ) .

ويؤثر عن هذا الأمير انه لم يتصرف عن الدعاء للمؤمن حينما اغتصب الخلافة
عمه ابراهيم بن المهدي ببغداد . فلما عادت الخلافة الى المأمون شكر له ذلك .

ويروي المؤرخون أن المأمون حينما عين قائده عبد الله بن طاهر بن الحسين
والياً على مصر سنة ٢١١ هـ ، كتب الى زيادة الله الأغلبي يأمره بالدعاء لعبد الله
ابن طاهر ، فلم يرض زيادة الله بذلك وأمر بادخال رسول المأمون عليه ليلة وقد
حل شعره وهو ثمل ونار عظيمة بين يديه في كوانين وقد احمرت عيناه ، فهال
الرسول منظره . وكان من كلامه بعد تقرير شأنه وطاعة سلفه « يأمرني بالدعاء
لعبد خزاعة ^(١) ؟ هذا ما لا يكون أبداً ! » ، ثم مد يده الى كيس يجنيه فيه
ألف دينار فدفعه للرسول وصرفه . وكانت في الكيس دنائير من المضروبة بأسماء
بني ادريس الظاهر ملكهم يومئذ بالمغرب ، ففهم المأمون مغزاه ولم يعاتبه بعد ^(٢) .

وهذا النص السابق يدل بوضوح على أن زيادة الله هدد المأمون بمبايعة الأدارسة
والدعاء لهم بدلا من العباسيين اذا ما فكر المأمون في خدش استقلاله الذاتي
واجباره على عمل لا يرضيه وقد فهم المأمون ذلك وتراجع عن مطلبه .

وظل زيادة الله الأغلبي حليفاً وتابعا مخلصاً للمأمون ومجاهداً لأعدائه البيزنطيين
في حوض البحر المتوسط . وقد تمت في عهده عملية من اكبر العمليات البحرية
في التاريخ الاسلامي وهي الاستيلاء على جزيرة صقلية التابعة للبيزنطيين .

(١) يقصد عبد الله بن طاهر بن الحسين الذي كان أصله من موالي قبيلة خزاعة .

(٢) ابن الخطيب : أعلام الاعلام - القسم الخاص بالمغرب - ص ١٧ ، نشر احمد مختار العبادي
وابراهيم الكتاني .

ففي سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) أمر زيادة الله بالغزو إليها ، واسند قيادة الحملة الى قاضي القيروان أسد بن الفران بن سنان ^(١) . ويؤثر عن هذا القائد العالم أنه حينما رأى حوله الجنود والخيول والطبول والبندوق قال « يا معشر الناس ما ولي لي أب ولا جد ولاية قط وما رأيت ما ترون الا بالأفلام ! فاجهدوا أنفسكم واتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه ، واصبروا على شدته ، فانكم تنالون به الدنيا والآخرة !

وكان هذا الجيش الفاتح يتكون من عشرة آلاف فارس معظمهم من الفرس الخراسانيين - وأسد بن الفران واحد منهم - والبقية من الأفارقة والاندلسيين المقيمين في افريقية . وكان إبحارهم جميعاً من ميناء سوسة في اسطول من مائة مركب الى جنوب جزيرة صقلية حيث ثبتوا اقدامهم في مدينة مازرة Mazara وغيرها من النواحي المواجهة للساحل التونسي جنوباً . ويروي المؤرخون أن مجاعة شديدة حاقت بجنود المسلمين حتى أكلوا لحم الخيل والدواب ، ومضى مندوب عنهم يدعى ابن قادم الى أسد بن الفران وقال له : « ارجع بنا الى افريقية ، فان حياة رجل مسلم أحب الينا من أهل الشرك كلهم » . فقال له أسد : « ما كنت لأكسر غزوة على المسلمين ، وفي المسلمين خير كثير » . فأبى عليه الناس ذلك ، وثاروا عليه ، فأراد أسد بن الفران حرق المراكب ، فبدرت من ابن قادم كلمة سيئة ، فقال أسد : « على أقل من هذا قتل عثمان بن عفان » ثم تناوله أسد وضربه ثلاثة أو اربعة أسواط ، وكأنه ضرب فيه دعوة التردد والهزيمة ، فتم له ما أراد ، وعادت العزيمة الى الأنفس ، فقاتل الروم قتالاً شديداً حتى هزمهم . ولقد استشهد هذا المجاهد الكبير عند اسوار مدينة سرقوسة Syracuse شرقي الجزيرة سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) بعد أن وطد الحكم الاسلامي في بعض نواحيها . وكتب زيادة الله بن الأغلب الى الخليفة المأمون يبشره بفتح صقلية .

(٢) كان أسد بن الفران من موالي بني سليم وأصله من خراسان من ينسابور وولد بجران سنة ١٤١ هـ . ويؤثر عنه أنه كان يقول : أنا الأسد ، والأسد خير الوحوش ، وأبي الفران والفران خير الماء ، وجددي سنان ، والسنان خير السلاح .

من كل ما تقدم نرى أن عصر المأمون كان عصرًا حافلًا بجليل الأعمال السياسية والحربية والعلمية . وقد توفي المأمون أثناء جهاده للبيزنطيين بالقرب من مدينة طرسوس في آسيا الصغرى سنة ٢١٨ هـ وهو في الثامنة والأربعين من عمره وكان قد عهد بالخلافة من بعده إلى أخيه أبي اسحاق المعتصم فأحسن بذلك إلى أسرته وإلى نفسه .